

- 19- حسن الصادقي، "مخطوطات في موضوع فاس وإفريقيا"، ندوة فاس وإفريقيا الدولية، نظمها معهد الدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، فاس 28-30 أكتوبر 1993، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى 1996، ص: 14.
- 20- عبد السلام بن سوادة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر بيروت، ط الأولى 1997، ص: 145-146.
- 21- هذه المعلومات مأخوذة عن مطبوعة صادرة عن المركز بتاريخ 1999.
- 22- راشد بن سعد القحطاني، خدمات المخطوطات العربية في مكتبات مدينة الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، ط 1996، ص: 132.

## دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

د/ عبد القادر بوباية

مقدمة: إن كتابة التاريخ الوطني مهمة ملقاة على عاتق المثقفين عامة، والمؤرخين منهم خاصة، ذلك لأنه، ولحد الساعة، مازالت الكتابات الإستعمارية هي المصدر الوحيد لجل ما يتعلق بتاريخنا، وبخاصة في الفترة الإستعمارية، ومن ثم فإن كثيرا من المغالطات والتزييفات مازالت عالقة بهذا التاريخ.

إنطلاقا من هذه الحقيقة، فإن كتابة التاريخ الوطني بأقلام وطنية يصبح أكثر من ضرورة ملحة، وفي هذا الإطار؛ فإن الملتقيات التاريخية التي تنظمها بعض الوزارات، وعلى رأسها وزارة المجاهدين والجمعيات الوطنية تساهم بشكل فعال في القيام بهذه المهمة الوطنية، ومساهمة مني في هذا المجهود الوطني، سأشارك بهذه المقالة المتواضعة التي يتمحور موضوعها حول الدور الذي قام به الرحالة والمستكشفون في التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

إن ضم القسم الأكبر من القارة الإفريقية بصفة عامة، والصحراء الكبرى بصفة خاصة، يدخل في إطار المرحلة الإمبريالية القاسية باقتسام القارة السمراء بين القوى العظمى،

ولذلك عرفت هذه المناطق توافد عدد من الرحالة والمستكشفين كان هدفهم الأساسي التعرف على كل ما يتعلق بالصحراء الكبرى والمناطق الواقعة في جنوبها.

لقد عرف الأوروبيون الصحراء وعلاقتها التجارية المزدهرة مع بلدان شمال إفريقيا خلال القرون الوسطى والحديثة من خلال ما كتبه الرحالة والجغرافيون المسلمون من أمثال أبي عبيد البكري صاحب كتاب "المسالك والممالك"، وابن حوقل مؤلف كتاب "صورة الأرض"، والشريف الإدريسي صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وابن بطوطة مؤلف

\* أستاذ محاضر في تاريخ المغرب الإسلامي - قسم التاريخ - جامعة وهران السانية.

كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وحسن الوزان صاحب كتاب "وصف إفريقيا" وغيرهم، ومن ثم عزموا على غزو الصحراء واستعمارها، ومن أجل تيسير ذلك اهتموا بمعرفة الطرق الصحراوية، وتتبع الأنهار الإفريقية، وأنشأوا الجمعيات الجغرافية والعلمية التي شجعت إرسال البعثات الاستكشافية، وحددت مهمتها الأساسية في جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المتعلقة بهذه المناطق لتسهيل مهمة الاستعمار، وكانت إنقلترا السباق في هذا المجال، حيث شكلت سنة 1788م جمعية أطلق عليها "الجمعية الإفريقية"، وهي تستهدف دراسة هذه المناطق، وجمع كل ما يمكن من المعلومات عنها وعن سكانها بقصد التوغل داخل القارة<sup>(1)</sup>.

وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر دخلت فرنسا المنافسة خوفا من استحواذ بريطانيا وألمانيا على مناطق واسعة من الصحراء خاصة وإفريقيا عامة.

إهتمام الاستعمار الفرنسي بالصحراء ودوافعه: بعد نجاحهم في السيطرة على القسم الشمالي من الجزائر، تحمس الفرنسيون لبسط نفوذهم على الصحراء الإفريقية إلا أن مقاومة سكانها أعاقت تقدم القوات الفرنسية، وأخرت سيطرتها على كامل الصحراء إلى نهاية القرن التاسع عشر، ويمكن تفسير هذا الإهتمام الكبير الذي أولاه الفرنسيون للصحراء بما يلي:

1- يتمثل الهدف الأساسي للفرنسيين في التوسع الاستعماري، والذي أسموه بالاستكشاف، والتعرف على هذه المناطق المترامية الأطراف، واقترن هذا الغزو والتوسع

الاستعماري بمحاولة التعرف على إمكانات الصحراء الاقتصادية والبشرية، واستكشاف المظاهر الجغرافية المختلفة للصحراء، كما اقترن أيضا بدراسة المجموعات السكانية، والتعرف على عاداتها وتقاليدها، وتاريخها السياسي والحضاري، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

2- تحقيق أهداف إستراتيجية وتجارية: ويمكن أن نستشف ذلك من خلال قراءة التقرير الذي رفعه المارشال سولت SOULT- وزير الحربية -إلى الملك لويس فيليب، والذي قال فيه: "يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية صنفا ثالثا من الجهات الإدارية؛ ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين، ولا تطأها الجيوش إلا عرضا لقمع الفوضى، أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية أو لتوسيعها، وهي مناطق تفتح لنا المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة"<sup>2</sup>، ويصب التقرير الذي أرسله الوالي العام بيجو إلى المارشال سولت في نفس الاتجاه، وفيه يقول: "وبسيطرتنا على هذه المناطق تفتح لنا آفاق واسعة لازدهار تجارتنا وربطها بإفريقيا الداخلية..."<sup>(3)</sup>

3- محاولة وضع شبكة من طرق المواصلات الحديدية والمعبدة وأسلاك الهاتف لتسهيل سبل التنقل في ظروف آمنة للقوات العسكرية بين مختلف المناطق الصحراوية، ومن أجل تحقيق ذلك شرع الفرنسيون في دراسة المظاهر التضاريسية والطوبوغرافية والمناخية لتحديد المناطق التي تصلح لمد هذه الشبكة من السكك الحديدية والطرق البرية وتحديد إتجاهاتها، والذين سيكلفون بإنجاز هذه الدراسة هم المستكشفون والدارسون الذين استغلوا طرق القوافل الصحراوية للاستفادة منها في مشاريعهم الاستعمارية، وفتح طريق تتغلغل من خلاله التجارة الفرنسية إلى قلب القارة الإفريقية، كما حاول هؤلاء أن يستفيدوا من كتب الرحالة العرب وكبار مؤرخيهم، وبذلك أمكنهم التعرف على شبكة الطرق الصحراوية التي وضعوا لها رسومات وخرائط يسهل مهمة الإستعمار<sup>(4)</sup>.

4- توفير الأمن للمعمرين وللمناطق التي يتواجدون بها في الشمال، لأن ثورات الشعب الجزائري في الشمال كانت سببا في تحول الواحات الصحراوية في الجنوب إلى معقل للثوار والمجاهدين الذين كانوا يفرون إليها للاعتصام والاستعداد لمواجهة العدو، ولذلك عزم الفرنسيون على التوسع في أعماق الصحراء، وبخاصة بعد ثورة سكان واحة الزعاطشة بمنطقة

بسكرة عام 1849م، وحركة الشريف محمد بن عبد الله بالأغواط وورقلة وتوقرت، وثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني عام 1864م<sup>(5)</sup>، ومما حتم هذا الأمر أيضا تعرض بعض الحملات الفرنسية إلى هجمات المقاومين الجزائريين في أعماق الصحراء، وأدى هذا إلى تقوية عزمهم على التوسع، والسيطرة على كل الواحات الصحراوية، ووضع حاميات عسكرية بما لتضمن لهم الأمن، وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة سكان الصحراء.

لقد شاهد الرحالة الألماني جيرهارد رولف- الذي زار إقليم توات سنة 1864م- مدى فعالية مشاركة أهل الجنوب لأهل الشمال؛ فقال على الخصوص: "قبل كل شيء على الفرنسيين أن ينقلوا حدودهم إلى نهاية وادي الساوره، فمن هناك بالضبط تبدأ كل المصاعب وكل الفوضى، ومادام الفرنسيون لم يستولوا على هذه الحدود الطبيعية؛ فلن يكون هناك أي هدوء دائم في جنوب مقاطعة وهران"<sup>(6)</sup>.

5- العمل على ربط المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا عن طريق الصحراء بمستعمراتها في إفريقيا الغربية، وبخاصة السنغال التي استقر لها الأمر فيه منذ سنة 1856م- 1857م، ومالي الذي احتلته سنة 1880م<sup>(7)</sup>، وما يؤكد هذا الأمر هو القرار الذي اتخذته الجمعية الجغرافية في باريس سنة 1855م، والقاضي "بتقديم مبلغ 6000 فرنك لكل من يقوم برحلة من الجزائر إلى السنغال أو بالاتجاه المعاكس بشرط أن يمر بمدينة تمبوكتو، ويأتي بمعلومات دقيقة وجديدة حول القوافل التي تعبر هذه القفار"<sup>(8)</sup>.

نشاط الرحالة والمستكشفين: كان الإنفليز والألمان السباقون إلى إكتشاف القارة الإفريقية؛ وبخاصة المناطق الداخلية منها، وخوفا من استحواذ هاذين البلدين على القارة السمراء، قررت فرنسا تشجيع مواطنيها للقيام برحلات هدفها استكشاف الأجزاء غير المعروفة من هذه القارة، ولتحفيزهم على القيام بذلك، قررت الجمعية الجغرافية الفرنسية تخصيص مبلغ مالي مكافأة لأول فرنسي ينقل ملاحظات إيجابية دقيقة عن تمبوكتو وعن المناطق الداخلية للقارة الإفريقية.<sup>(9)</sup>

إن هذه الرحلات كانت تمهد للتوسع الفرنسي في المناطق الصحراوية، ودليلنا في ذلك تصريحات وكتابات الفرنسيين أنفسهم، ومن ذلك ماجاء في نهاية التقرير الذي وجهه

الأمير هنري دورليان (Henri D'Orléans) إلى الوالي العام بالجزائر، وهو يتكلم عن الحملة الفرنسية التي استولت على بسكرة في 4 مارس 1844م، حيث قال: "لقد بعثت عيوني من الضباط الذين يحسنون اللغة العربية؛ فاختلطوا بجميع القبائل، وفي ظرف عشرة أيام أتوني بالإرشادات السياسية اللازمة، والإحصاءات الصحية التي مكنتني من إنشاء سلطة متينة، واتخاذ التدابير الأولى المستعجلة لفائدة فرنسا."<sup>(10)</sup>

لقد شارك في هذه الرحلات الاستكشافية رحالة ومستكشفون من جنسيات مختلفة، ولكننا سنقتصر في مقالاتنا هاته على ذكر نشاط الرحالة الفرنسيين بالدرجة الأولى، وبعض الأجانب الذين عملوا لمصلحة فرنسا مع العلم أن التنافس الاستعماري الذي اشتد ما بين الدول الكبرى كان يحتم على كل رحالة أن يخدم مصلحة بلده بالدرجة الأولى.

1- روني كايي (Caillé): يعتبر من أوائل المغامرين الفرنسيين الذين توغلوا في أعماق الصحراء، وقد شرع كايي في رحلته إلى تمبوكتو سنة 1827م مدعيا للقبائل التي يمر بها في طريقه أنه مصري تربى في فرنسا منذ صغره، وفي 14 مارس 1828م وصل هذا المستكشف إلى فخر النيجر، ثم دخل مدينة تمبوكتو في 20 أبريل، وبذلك كان أول أوروبي يعود بوصف دقيق لهذه المدينة، ومنها عاد عبر الصحراء إلى مدينة طنجة؛ فمر بمنطقة توات وتافيلالت التي وصل إليها في شهر جويلية، وفي 14 أوت دخل إلى مدينة فاس.

سجل كايي ملاحظات، وأنجز رسوما قيمة أثناء رحلته، و"بذلك فقد قدم إلى فرنسا والمصالح المختصة بالتوسع الاستعماري معلومات جغرافية وحضارية هامة على هذه المناطق، ساعدتها فيما بعد في عمليات الغزو الفرنسي للجنوب الجزائري، والتوسع في الصحراء الإفريقية، وكشفت لها أسرار هذه الأصقاع."<sup>(11)</sup>

2- النقيب بون مان (BONNEMAIN): قام هذا النقيب سنة 1856م برحلة إلى غدامس، وتعرف على الطريق الرابط بين الوادي وغدامس، ووضع رسما لطريقين جغرافيين يربطان بينهما، كما وضع مخططا للمدينة، وجلب الكثير من المعلومات ذات الطابع التجاري.<sup>(12)</sup>

3- هنري دوفيري (DUVEYRIER): يعتبر من أبرز الرحالة الفرنسيين نظرا لتعدد رحلاته، وما قدمه من معلومات حول المناطق التي زارها.

قام دوفيري برحلة تمهيدية إلى الجزائر سنة 1857م زار خلالها إلى جانب العاصمة، الهضاب العليا والأغواط والجانب الصحراوي من الأوراس، وفي واحة الأغواط تعرف دوفيري بأحد رجال التوارق، وبعد عودته نشر دراسة عن القبائل البربرية ضمنها ترجمة لمفردات من لغتهم، وفي نفس السنة قابل المستكشف الألماني هنري بارث الذي قدم له كثيرا من النصائح والتعليمات التي تفيده في سفره، وعندما توفي هذا الأخير حولت أسرته إلى دوفيري جزءا مهما من أوراقه ووثائقه؛ فاستفاد منها كثيرا في رحلته الكبرى.

قام دوفيري بإعداد رحلته الاستكشافية؛ فاطلع على كثير من الكتب، واستشار عددا كبيرا من المتخصصين الأوروبيين في شؤون الصحراء، كما تعلم الأدوات وطرق تحديد المواقع، وقام بزيارات إلى المتاحف أين أتم معلوماته في الجيولوجيا وفي علم الطبيعة، وحصل على معلومات عن الإيثنولوجيا والسلالات الصحراوية، وبعد سنة من التحضير والاستعداد سافر إلى الجزائر، وذلك سنة 1859م، ومنها إتجه إلى بسكرة (8 ماي 1859م) ثم غرداية، ومنها إلى القليعة التي لم تكن قد وطأها قدم أوروبي قبله.

قام دوفيري ببعض العمليات الفلكية، وذلك في ظروف قاسية نظرا لاستياء الأهالي من وجوده رغم أنه كان يرتدي أثناء رحلته ثياب سكان المنطقة، وهو الأمر الذي اضطره إلى العودة من جديد إلى الجزائر، وبعد هذه الرحلة في جنوب الجزائر، قام برحلة أخرى في جنوب قسنطينة وتونس، وفي رحلته إلى التوارق قام بأبحاث مستفيضة في كل مكان مرّ به عن السكان، ومن أجل تحديد موقعه الجغرافي، وللتعرف عن النباتات والمعادن التي تصادفه في طريقه.

إتجه دوفيري إلى توارق الشمال المقيمين بجبال طاسيلي إنطلاقا من غدامس، وفي طريقه وجد مساعدة كبيرة من شخصين من التوارق هما الأمينوكال إينخوكن والشيخ عثمان، كما دعمه نابليون الثالث في مهمته.

وصل دوفيري إلى غات، وكانت مدينة مستقلة، وقابله سكانها بعداء شديد خوفا من نواياه الحقيقية المتمثلة في بسط السيطرة الفرنسية على المنطقة، والتحكم في تجارتها، في الوقت الذي رحب به التوارق، واستغل وجوده بينهم؛ فتعلم لغة تماشق وحروفها الهجائية (التيفيناغ)، وصار يحضر اجتماعات القبيلة وينتقل معها، وهو في كل ذلك يتعلم ويسجل ملاحظاته.

عاد إلى الجزائر فطلب منه الوالي العام أن يقدم تقريراً مفصلاً مزوداً بخريطة عن رحلته، وبعد ما أنجز عمله مرض بجمى التيفويد، وبعد ثلاثة أشهر من المرض أصيب بفقدان الذاكرة، ومع ذلك فإن المذكرات والملاحظات التي سجلها كتبت بعناية ودقة، وبعد ثلاث سنوات نشر كتابه القيم عن التوارق تحت عنوان "توارق الشمال"، وهو عبارة عن دراسة شاملة لمنطقة التوارق، كما تتضمن معلومات هامة عن الجغرافية الطبيعية وطبقات الأرض وموارد الماء، إضافة إلى اشتغالها على ملاحظات تتعلق بالحيوانات والنباتات وأحوال المعيشة والطقوس الدينية، وأخلاق التوارق وعاداتهم وتقاليدهم وأصولهم.<sup>(13)</sup>

بعد حرب 1870م ضد ألمانيا، استأنف دوفيري أبحاثه ودراساته فوضع كتاباً كبيراً عن الطرق الدينية، ونشر عدداً من الوثائق عن جغرافية إفريقيا، وأصبح مستشاراً وناصحاً لكل من أراد القيام برحلة إلى الصحراء.<sup>(14)</sup>

4- جيرهارد رولفس (Gerhard Rohlfs): هو من أصل ألماني، إنخرط في اللغيف الأجنبي الفرنسي، وشارك في العمليات العسكرية التي تمت في بلاد القبائل، وتعلم خلالها اللغة العربية، واكتسب معرفة بعادات الأهالي وتقاليدهم، ثم غادر اللغيف الأجنبي سنة 1861م، وقام بحلق رأسه وأعلن إسلامه، ثم بدأ رحلته سنة 1862م من تافيلالت لكن السكان شككوا في إسلامه فأسروه ولم ينقذه من انتقامهم سوى عملية الختان التي كان قد قام بها، ورغم اعتداء دليله عليه نجح في مواصلة رحلته في اتجاه البحر الأبيض المتوسط عبر جنوب وهران. رغم فشل هذه الرحلة قرر رولفس القيام برحلة جديدة إلى تمبوكتو عن طريق الصحراء الجزائرية، ولكن ثورة أولاد سيدي الشيخ منعتة من ذلك، وعندئذ قرر أن يسلك طريقاً آخر إنطلاقاً من المغرب الأقصى.

عاد رولفس إلى تافيلالت، ودرس بعناية مجموعة الواحات المغربية والجزائرية المتاحة لها قبل أن يواصل رحلته رفقة ثلاثة من الأهالي إلى توات ثم إلى إيقلي فيالي بني عباس ثم أدرار، ومن هناك عرج إلى الشرق، وفي 17/09/1864م وصل إلى عين صالح، وكان وصفه لهذه المدينة، الوصف الوحيد الذي وصل إلى العالم قبل احتلال الفرنسيين لها في نهاية القرن التاسع عشر.

لقد نجح رولفس في اختراق الصحراء من المغرب الأقصى حتى ليبيا عبر الصحراء الجزائرية. (15)

5- بول صولبي (Paul Soleillet): شرع في تحضير رحلته منذ سنة 1866م، وذلك بالتعرف على عادات وتقاليد سكان الجزائر والنعود على لغتهم، كما درس كتب التاريخ والجغرافيا والكتابات الاقتصادية حول إفريقيا.

غادر مرسيليا في 6 ديسمبر 1872م متجها إلى الجزائر، وبعد إنهاء الاستعدادات بدأ رحلته نحو عين صالح؛ فزار الأغواط وغرداية، ثم دخل متليلي التي غادرها في 14/02/1873م، وفي 19/02/1873م بدأ كما يقول: "رحلته الاستكشافية الحقيقية" من المنبوعة إلى عين صالح، وكانت بعثته تتكون من 26 فردا وعشر جمال وثلاثة خيول وفي 23/02/1873م وصل إلى المنبوعة، وفي 6 مارس 1873م وصل إلى مشارف عين صالح التي رفض أصحاب قصبته أن يفتحوا الأبواب للبعثة؛ فاضطر صولبي إلى العودة من حيث أتى، ومع ذلك فقد قدم معلومات هامة في كتابه، وبخاصة حول هضبة تادمايت وماجاورها، والتي استفادت منها سلطات الاستعمار في توسعها في الجنوب. (16)

6- آخرون: نظم فيل (Vill) رحلة إلى حوض الحصنة والصحراء في أواخر الستينيات، كما قام إيروينق دوباري (Erwing de bary) برحلة قادته إلى مدينة غات، كما زار توارق آجار وطاسيلي، وتوفي بمدينة غات خلال رحلته هاته وذلك عام 1877م. (17)

#### نتائج الرحلات الإستكشافية:

1- الإهتمام بدراسة الإمكانيات الاقتصادية التي تتوفر عليها هذه المناطق، والتعرف على المظاهر الجغرافية الطبيعية، وعلى مصادر المياه والثروات الزراعية، وذلك بهدف استغلالها والاستفادة منها خلال التوسع وبعده، وبفضل ذلك تم إنجاز مجموعة من الدراسات والأبحاث، حيث درس أحد الضباط (أوجيرا - Augieras) المظاهر الطبوغرافية والآبار المائية لمنطقة ورقلة، واهتم بربروقر (Berbrugger) بدراسة الآبار، والإنتاج الفلاحي لمنطقة وادي ريغ، واهتم داتانو بدراسة الأرض والإنتاج، وكيفية الاستغلال الاقتصادي للمنطقة الصحراوية، ودرس بيسي (Bisset) منطقة تديكلت من الناحية الجغرافية والبشرية، ومصادر الثروة،



و درس كانسل (Cancel) جغرافية عرق إيقدي وواد الساورة، وتعرض كابوري (Capot-Rey) لأهمية آبار وادي ريغ من الناحية الاقتصادية والسياسية، ودرس دوليك (Deluc) مصادر المياه في الجنوب الوهراني.

2- تحقيق الأهداف التجارية للإستعمار الفرنسي: لقد وقع تنفيذ الأغراض التجارية التي بدت واضحة منذ بداية الاحتلال الفرنسي بعدد ضخم من "المهمات" التي كانت تسبق الوحدات العسكرية أو تصبحها، وذلك للقيام بمعاينة المكان لتيسير الغزو، وبدراسات مضبوطة للأسواق التجارية؛ فمنذ سنة 1848م قام التجار الذين استقروا بقسنطينة بغزو سوق توقرت، ونشر براكس (Prax) دراسة حول "العلاقات التجارية الجزائرية مع مكة والسودان" في سنة 1851م، وفي سنة 1859م قام هزي دوفيري برحلة إلى القليعة، ثم دخل في حماية إيجنوكن، وذلك للقيام بزيارة سوق غدامس، وجمع الوثائق والمعلومات التي نشرت سنة 1864م في كتاب عنوانه "توارق الشمال"، كما تحصل دوفيري على معاهدة تجارية مع زعيم التوارق سنة 1862م، والتي يلتزم بمقتضاها هؤلاء بأن "يساعدوا مرور التجار الفرنسيين أو الأهالي عبر أراضيهم مع الالتزام بحمايتهم حتى وصولهم إلى السودان"،<sup>(18)</sup> ومن جهتها كلفت الغرفة التجارية بالجزائر بول صولبي سنة 1874م بمهمة "تقديم بعض منتوجاتها الصناعية لسكان الصحراء الوسطى"<sup>(19)</sup>

لم تلق هذه العمليات الاستطلاعية إلى ذلك الحين شيئا من الحواجز لأن رؤوساء تلك المناطق وسكانها، وحتى الرحل أنفسهم كانوا يرون في هذا التصرف فرصة لربط علاقات متوازنة بفضل الوحدة القديمة بين التل والصحراء، ولكن الواقع كان غير ذلك إذ أن الجيش كان يعقب مباشرة تلك البعثات التجارية، وفي حالة وصول الجيوش قبل البعثات فإنها تشرع في استقصاء الأسواق لفائدة الاستعمار التجاري، وفي نفس الوقت تقوم بالتعرف على القوة العسكرية المحلية، وهو الأمر الذي أنيط ببعض الدراسات مثل دراسة دوماس (Daumas) بعنوان "الصحراء الجزائرية" سنة 1842م، أو دراسة دي كولومب (De Colomb) بعنوان "إكتشاف القصور وصحراء جهة وهران" سنة 1858م، إضافة إلى بحث آخر عنوانه "الصحراء الكبرى" صدر سنة 1848م، والذي ركز على تقييم الإمكانيات المتاحة لاستعمال طريق القوافل من ورقلة إلى أفاديس مرورا بالقليعة وتيمون وعين صالح والمقار.<sup>(20)</sup>

3- توفير الأمن للمعمرين في الشمال وبداية التوسع في الجنوب: لقي الجيش الفرنسي مقاومة عنيفة بالصحراء إلى درجة أن سكان تلك المناطق كانوا يشاركون في التحركات التي شهدتها المناطق الشمالية، والدليل على ذلك هو أن نفوذ الأمير عبد القادر في أوج قوته (1839) جعلت خليفته يزيح الفرنسيين عن بسكرة والزيان، وكانت الأغواط تدفع له الإتاوة بعد القضاء على التيجانية في عين ماضي، وامتدت سلطته إلى وادي ريغ والمزاب، كما سيرحب بمقدمه أولاد سيدي الشيخ وأولاد نايل، كما انضم إليه أهالي القصور في جنوب وهران.

نظرا لما تقدم فإن بداية التوغل في الصحراء كانت مصحوبة بمحاربة الأمير عبد القادر حيث قام الفرنسيون باحتلال بسكرة والأغواط لأول مرة سنة 1844م، وفي سنة 1845م استولى جيرى (Gery) على قصور حميان وستيتن وغسول وبريزنة، وأثناء احتلال منطقة القبائل الشرقية والأوراس ثارت الحصنة والزيان وأيدتهما منطقة مزاب، وانتهت هذه الثورات بفرض السيطرة الفرنسية على واحات الزعاطشة وبوسعادة سنة 1849م، وتمت السيطرة على الأغواط سنة 1852م بعد ما قاوم السكان فرادى وجماعات الاحتلال الفرنسي، وسمح الاستيلاء النهائي على الأغواط للماريشال راندون بمد نفوذ الاستعمار الفرنسي إلى ورقلة (1854م)، كما فرض معاهدة على المزاب 29 أبريل سنة 1853م جعلت هذه المنطقة تابعة لفرنسا.

#### الخلاصة:

مما لا شك فيه أن الاستعمار الفرنسي قد حضر عملية الاستيلاء على الجزائر، والتوسع عبر أراضيها بشكل جيد، وكان الرحالة والمستكشفون حجر الزاوية في هذه العملية، وذلك لأنهم جمعوا كمية ضخمة من المعلومات عن كل ما يتعلق بسكان هذه المناطق (عاداتهم وتقاليدهم وتنظيماتهم وقواهم...)، وبطبيعتها الاقتصادية، وبخاصة في المجال التجاري نظرا للدور الكبير الذي كانت تلعبه في ربط الصلات التجارية بين شمال إفريقيا والمناطق الواقعة جنوب الصحراء، وبفضل هذه المعلومات أمكن لجيوش الاحتلال ترتيب الأمور المادية التي ستسمح لهم بالاستيلاء على الصحراء الجزائرية رغم المقاومة التي قام بها سكان هذه المناطق

الذين نجحوا في تأخير السيطرة الفرنسية على كامل التراب الجزائري إلى غاية بداية القرن العشرين.

إن هؤلاء الرحالة والمستكشفون مهدوا للاحتلال ويسروا إنجازهم، ذلك لأنهم زودوه بكافة المعلومات والخرائط والرسومات التي يسرت له التحرك في هذه المناطق، وانطلاقاً من هذه الحقيقة فإنه لا يمكن موافقة الرأي الذي يقول بأنهم قاموا برحلاتهم هاته رغم كل ما تنطوي عليه من أخطار سببها طبيعة المنطقة في حد ذاتها أو تسببت فيها مقاومة الأهالي الذين شعروا بالنوايا الحقيقية هؤلاء الرحالة (مقتل العديد من هؤلاء الرحالة في الصحراء الجزائرية) من أجل البحث والعلم فقط.

صحيح أنهم أثروا المكتبات بكم هائل من المعلومات حول طبيعة الصحراء وسكانها وثروتها الاقتصادية، ولكن هذه الأخبار كانت موجهة بالدرجة الأساسية لخدمة الاستعمار الفرنسي، وإلا فكيف يمكن أن نفسر الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه الحكام والهيئات الحكومية الفرنسية لهذه البعثات الاستطلاعية.

#### الهوامش

- 1- إسماعيل العربي - الصحراء الكبرى و شواطئها - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1983 - ص 64.
- 2- أندري برينان وآخرون - الجزائر بين الماضي والحاضر - ترجمة رابح اسطنبوي وآخرون - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1984 - ص 384 - 385.
- 3- E. MANGIN - notes sur l'histoire de Laghouat in Revue Africaine - n° 38 Année 1894 - O.P.U. Alger P.87.
- 4- يحي بوعزيز - ثورات الجزائر في القرنين 19 - 20 - ج1: ثورات القرن 19م - منشورات م.و.م - الجزائر - 1996م - ص 309.

- 5- PAUL AZAN – conquête et pacification de l'Algérie – librairie de France-  
Paris – 1929 P. 407.
- 6- يحيى بو عزيز – نفس المرجع – ص 310.
- 7-Malte Brun (V.A)-résumé historique et géographique de l'exploration de  
Gerhard Rholf's an touat et in Salah – Paris 1866 – P 67.
- 8-إسماعيل العربي – الصحراء الكبرى و شواطئها – ص 101.
- 9-A.Bernard et Lacroix –la pénétration Saharienne –Gouvernement Général  
de la France – Alger . 1906 – P.13 – 14.
- 10-إسماعيل العربي – نفس المرجع – ص 70.
- 11-محمد العربي الزبيري – مقاومة الجنوب للإحتلال الفرنسي – ش.و.ن.ت. الجزائر – 1972 – ص.32
- 12-ابراهيم مياسي – توسع الإستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري – منشورات م.و.م- 1996 –  
ص 48.
- 13-Henri Lhote – les touaregs du Hoggar– lib. Payot– paris– 1944–P.328-329.
- 14-G.O. Meynier - la pacification du Sahara et la pénétration Saharienne –  
Pub. Du Comité Nat. Métrop. Du Centenaire –Alger – 1930 – P. 11.
- 15-إسماعيل العربي – نفس المرجع – ص 88.
- 16-إسماعيل العربي – نفس المرجع – ص 90-91 / P. 10 – op-cit G.O. Meynier
- 17-ابراهيم مياسي – نفس المصدر – ص 59 – 60.
- 18-يحيى بو عزيز – نفس المرجع – ص 315.
- 19-أندري برينان و آخرون – نفس المرجع – ص 389.
- 20-نفسه – ص 389.
- 21-نفسه – ص 385 – 386.

## تجربتنا مع الرواية الشفوية.

د/ عبد القادر خليفي

التعريف بالموضوع:

تتمثل هذه التجربة في رسالتنا لدكتوراه الدولة التي ناقشناها خلال السنة الجامعية 2001/2000 والموسومة بـ: "المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة"، والتي قسمناها إلى